المدينة... التي تعتبر من أكثر المدن القائمة قدماً في العالم... [و] عادة ما تحدد سوريا القديمة كمجال يشتمل على سوريا الحديثة ولبنان واسرائيل [فلسطين] والأردن. واليوم، عندما يشير بعض الزعماء العرب الى سوريا الكبرى، فانهم يتصورون في ذهنهم هذا المجال نفسه» (ص ٧٧)؛ أمّا فلسطين «التي تدعى، أيضاً، أرض كنعان أو الأرض المقدسة»، فلم تكن لها حدود واضحة، حسب الكاتب (ص ١١٥). «وفلسطين اسم قديم العهد استمد من الفلسطينيين الذين عاشوا هنالك. كانوا يعرفون بشعب البحر، وقطنوا، بشكل رئيس، الأراضي على الساحل البحري لما يعرف اليوم بجنوب اسرائيل وقطاع غزة. هذا ولا تقدم التوراة أية صورة جذّابة عن هؤلاء القوم، لأنهم لم يكونوا يعبدون الله، ولأنهم تنافسوا مع واضعي الكتاب المقدس من أجل السيطرة على أرض كنعان» (الصفحة ذاتها). هذان الشعبان المتنافسان على السيطرة على فلسطين «بالرغم ـ ولعله بسبب ـ التشابهات القوية بين التاريخ القديم والحديث يبغض الاسرائيليون والفلسطينيون عموماً كل منهما الآخر، وينكرون، عادة، أي تماثل بين ظروفهما، كما لو أن الاعتراف، بشكل ما، بشرعية قضية الخصم يعني اضعاف قضية الطرف الآخر» (ص ١١١٨). أمّا الأردن، كما ذكر الكاتب، فيبدأ بذلك «الممر الضيق الذي... [يؤدي] الى الاقتراب أكثر من وادي موسى، حيث كان الاسرائيليون الذين تهددهم الفناء قد تلقوا الماء، بمعجزة، من نبع جديد، اذ قال الله لقائدهم ان يضرب صخرة بعصاه» (ص ١٣٥). ومصر هي المكان الذي «تلقى موسى [فيه] من الله وصاياه العشر» (ص ١٥٣) في صحراء سيناء. وبسبب غنى مصر، في ذلك الزمان، «لم يكن مدهشاً ان يستأنف ابراهيم طريقه الى دلتا النيل ـ ليس بعيداً عن مزرعة السادات العائلية ـ ربما ليبتاع المؤن لعائلته وقطعانه، بعد ان اكتشف القحط والجوع لدى وصوله، أخيراً، الى أرض الميعاد في كنعان... [و] عندما تعرّضت أرض كنعان لقحط كبير آخر، عادت عائلة اسرائيل (الذي يعرف أيضاً بيعقوب) حفيد ابراهيم، من جديد الى مصر... لتنقذ نفسها من الموت جوعاً. ظل خلفاؤه هناك أربعة قرون... الى ان أعادهم موسى من جديد الى أرض الميعاد» (ص ١٥٧). والجزيرة العربية هي تلك المنطقة التي جاءت منها ملكة سبأ «لزيارة الملك سليمان، ملك اسرائيل، الأقوى نفوذاً حوالى ١٠٠٠ ق.م» (ص ١٧٥). وهذا الربط بين التاريخ التوراتي لمنطقة الشرق الأوسط والوضع الراهن يتوزع على معظم فصول الكاتب، ان لم يكن على جميعها.

الطموحات المستحيلة والامكانات المعقولة

كي يشير الى استمرار اراقة الدماء في الشرق الأوسط، بدأ الكاتب سطور كتابه الأول بذكر مجازر صبرا وشاتيلا. وقد أخطأ في تحديد تاريخ تلك المجازر؛ اذ أورد انها وقعت في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٢ (ص ٢٥)، والواقع هو انها وقعت في ١٦ و١٧/٩/١٩٨٢؛ واستنتج «انه في تاريخ لعبة السياسة والنضال لتلك الأقطار، يكاد يكون الأبرياء هم من يدفع ضريبة الموت، وبأعداد كبيرة» (ص ٢٥).

وبعد ان استعرض الرئيس كارتر، في كتابه، تاريخ أبناء ابراهيم باختصار، استعرض تاريخ الصراع الحديث على فلسطين، باختصار أيضاً، واوجز الوضع الراهن على النحو التالي: «لدى كتابتي هذه الصفحات (كانون الثاني [يناير] ١٩٨٥) ما تزال اسرائيل جاثمة [على]... جنوب لبنان والضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان؛ كما ان السفير المصري ما برح مسحوباً من اسرائيل في ظل سيادة ' السلام البارد ' الدقيق بين البلدين. أمّا الملك حسين، فان رغبته في احياء عملية السلام، والمفاوضة نيابة عن الفلسطينيين، لا تزال محبطة نتيجة لنقص الدعم من قبل م.ت.ف. والقادة العرب المعتدلين. وبدورها، فان الولايات المتحدة تعاني من الفشل المكلف والمربك في بيروت، في الوقت الذي برز الرئيس السوري، حافظ الأسد، كقوة خارجية لا يمكن اعتراضها في لبنان. في أحسن الأحوال، ثمة ورطة، الآن، في الشرق الأوسط تتفاقم بشكل مطرد بواسطة سياسات وتصريحات وأفعال، في مجمل الأحوال تغذي الارتياب وسوء الفهم» (ص ٣٩). مع ذلك، قال الكاتب: «في بعض الأحيان، وفي ظل ظروف على درجة متساوية من التعقيد، استطاع الرسميون الأميركيون جمع الفرقاء المتخاصمين معاً وتحقيق انجازات بنجاح محدود، مثل العّراب داعم قراري مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ والرقم ٣٣٨، كيسنجر، في ديبلوماسيته المكوكية، وفي ظل حكم الرئيسين ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، والمواصلة